الشعر مصداق بارز من الفن

المكان: طهران

الزمان: 1390/3/3ش. 1432/6/20هـ. 2011/5/24م.

المناسبة: ذكرى ولادة الصديقة فاطمة الزهراء (ع)

الحضور: جمع غفير من شعراء ومداحي أهل البيت (ع)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين. اللهم صلّ على فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها.

أبارك هذا اليوم الشريف المتلألئ بالأنوار المعنوية لكم جميعاً أيها الإخوة والأخوات الأعزاء مدّاحو أهل بيت الرسول الأطهار، والبلابل المترنّمة في الروضة النبوية والعلوية والحسينية. والحق أنه لمن المناسب أن يبارك المرء هذا اليوم لكم أيها المداحون الأعزاء والقراء في المحافل الدينية والعاملون على ترقيق قلوب المستمعين بالمواعظ الإلهية. نشكر الله على أن هذه الجلسة تقام سنوياً منذ أعوام – وربما منذ حوالي ثلاثين عاماً – في مثل هذا اليوم، وربما يعود ذلك إلى ما يربو على عمر بعض الحضور المحترمين. طبعاً نحن نتوسل على طول السنة بهذه السيدة الجليلة ونتبرك بذكرها. واليوم ذكرى ولادتها، وبالطبع فإن فرحة ذكرى ولادتها يضاعف من توجّهاتنا وذكرنا وخشوعنا القلبي إن شاء الله.

إن اقتران هذه المناسبة بذكرى ولادة الإمام الخميني – في يوم العشرين من جمادى الثاني – حالة جد طيبة بالنسبة لنا. كان هذا الإنسان الجليل الذي أدركنا محضره طوال أعوام نموذجاً حقيقياً لتلك الحقيقة العظمى والمتألقة التي سمعناها عن الأئمة العظماء وعلمناها من الآثار وحملناها في خواطرنا عن أمّ الأئمة النجباء (سلام الله عليها). طبعاً يجب عدم المقايسة ولا يمكن المقارنة، ولكن على كل حال كانت هناك نفس العلامات وكان هناك السير في نفس الطريق لدى هذا الإنسان الجليل، وكان فيه ذلك الإيمان والإخلاص والعبادة والغيرة والصبر والثبات في سبيل

الله. الأمور التي أعزّت إمامنا في الأرض والسماء وعند عباد الله المخلصين هي هذه الخصوصيات. هذا أيضاً عيد مضاعف. وقد تزامن هذا العيد في هذه السنة مع الثالث من خرداد، وهذه بحد ذاتها قصة. هذا الأخ العزيز الذي يبدو حسب الظاهر أنه معاق قرأ هذه الأشعار الجزلة هنا وهي ذكريات من تلك الأيام.. أيام الدفاع المقدس. وبالتالي فاليوم من تجليات الدفاع المقدس، وهو يوم كبير على كل حال.

من الخصوصيات البارزة في ثورتنا هو الذكر المتكرر المضاعف لاسم السيدة فاطمة الزهراء المبارك (سلام الله عليها) والاسم المبارك لسيدنا بقية الله الإمام المهدي المنتظر (صلوات الله عليه). هذان الاسمان المباركان تكررا طوال فترة الثورة بمناسبات مختلفة أكثر من سائر المعارف الإلهية الإسلامية والمعارف الشيعية، وهذه بحد ذاتها ظاهرة. خلال فترة ما قبل الثورة الإسلامية لم يكن الاسم المبارك للسيدة الزهراء (سلام الله عليها) يتكرر بهذه الدرجة لا في المحافل الدينية ولا في الأجواء العامة ولا في لغة الشعراء والخطباء والخواص والعوام وسواهم. كان هناك متدينون ومجالس ومحافل وخطباء، وكان اسمها المبارك يذكر، ولكن لا بهذا الشكل والسعة وعمق النظرة. وهذا شيء لم يعلمه أحد للناس. أي إننا لم نطرح هذه القضية في شعاراتنا وفي كلامنا. إنما هي ظاهرة إلهية وأمر نابع من القلوب والعواطف والإيمان. لم يقل أحد – لا الإمام الجليل ولا كبار شخصيات الثورة – للمقاتلين خلال فترة الدفاع المقدس أن اختاروا اسم «يا زهراء» لهجماتكم، أو اعصبوا جباهكم بعبارات «يا زهراء». ولكن كلما نظرتم وجدتم الاسم المبارك للسيدة الزهراء يطرح ويذكر أكثر من كل الأسماء المطهرة والمباركة الأخرى طوال فترة الدفاع المقدس. وكذلك الاسم المبارك لسيدنا بقية الله (أرواحنا فداه). هذان الاسمان نبعا هكذا من القلوب والإيمان والعواطف في فترة الثورة بشكل طبيعي ومن دون أوامر وتعميمات أو دراسة مسبقة. وهذه علامة مباركة.. علامة توجّه سيدة العالمين وتلك المخلوقة الملكوتية الإلهية المنقطعة النظير في ساحة الوجود من حيث النور الذي تحمله بعد والدها العظيم والإمام أمير المؤمنين (عليه السلام). وقد كان بعض أهل المعنى يشير إلى هذا التوجّه الخاص. سمعنا من البعض قولهم إن سيدة العالمين لها توجّه خاص. وهذا شيء قيم جداً وباعث على الأمل ويربط على قلوبنا ويزيدنا ثقة وطمأنينة في أعماق أرواحنا بالوصول إلى الأهداف النهائية. وبذلك تتخذ الخطوات برسوخ وثقة. حينما ينظر المرء إلى الهدف ويعرف هدفه لن يكون الوصول إلى ذلك الهدف أملاً ساذجاً في نفسه. إنه فرد صاحب أمل ويقطع خطواته برسوخ ولا يضيع الطريق، ولا يميل يميناً أو شمالاً.

من أهم خصوصيات الثورة الإسلامية في إيران أنها طوال إثنين وثلاثين عاماً ورغم صعوبة الطريق وطوله ورغم كل هذه المضايقات والمعارضات وسياسات التصدي المتنوعة ذات الأشكال المختلفة والجوانب المتعددة فإنها لم تنحرف عن هذا الخط المستقيم حتى بدرجة قليلة. الشعارات نفس الشعارات والأهداف نفس الأهداف والخط نفس الخط والطريق نفس الطريق. ببركة الكلمات الواضحة والبليغة لإمامنا الجليل – وهي مسجلة لحسن الحظ – لا يوجد مجال للتفسير والتأويل.. الطريق طريق مستقيم والثورة سائرة في هذا الطريق. وأقولها لكم: طالما كانت خطواتنا أنا وأنتم راسخة وأعيننا مسمرة على الهدف وطالما سرنا يحدونا الأمل فلن تستطيع أية قوة في العالم سدّ الطريق بوجهنا، ولهذا أكبر الأثر في إنماء براعم الأمل في قلوب المسلمين والشعوب الإسلامية.

حينما تقع الثورة تُفرِح الكثيرين في العالم. هكذا هي كتل الجماهير عادة. أتذكر أن دكتاتور إسبانيا فارق الحياة خلال فترة القمع. ومع أن وفاته لم يكن لها أي علاقة بنا لكننا فرحنا هنا في طهران أو في مشهد، وكأن الأمر كان بالنسبة لنا حفلاً لزوال ذلك الدكتاتور الذي حكم لسنين في إسبانيا. أو حينما فارق الحياة دكتاتور آخر في البرتغال – والضجة في هذه البلدان الآن على أشدّها والحركة حركة عظيمة – فرحنا نحن هنا. إذن، حينما تحدث الثورات يفرح كل إنسان في قلبه أمل وطموح وفكرة سامية ويعيش آلاماً من الواقع المحيط به ومن النظام الذي يسوده. وحينما وقعت ثورتنا فرح لها الكثيرون. ولكن في الكثير من هذه الظواهر لا تستمر الفرحة طويلاً. تقع أحداث تزيل تلك الأفراح. والأمر مختلف من حالة إلى حالة. أحياناً يستمر الأمر عشرة أعوام وأحياناً عشرين عاماً، وأحياناً لا يستمر الأمر حتى لهذه المدة فتنحرف المسيرة.

في عقد الستينات الميلادية تقريباً وقعت ثورات في بلدان شمال أفريقيا – في مصر والسودان وتونس والجزائر – لكنها لم تستمر طويلاً. أما أن الذين كانوا على رأس الأمور والممسكين بزمام الثورة أزيحوا بشكل من الأشكال، وتركوا مواقعهم للعملاء، أو إنهم أنفسهم أصبحوا عملاء. زخارف الدنيا لا تترك البشر لحالهم.. إنها وساوس تعمل وتنشط باستمرار في قلوب الناس. لو لا دروع التقوى لتركت هذه العوامل تأثيرها في البشر بسرعة فيتغير الطريق. لذلك تتفتح الآمال نتيجة وقوع الثورات لكنها تتحول بعد ذلك إلى كآبة نتيجة حالات النكوص والتراجع.. ربيع عاجل يأتي ويزول.

خصوصية هذه الثورة الإسلامية العظيمة التي فجرتموها أيها الشعب الإيراني هي أن ذلك الربيع لم يتخلله خريف لحد الآن. هذا الصمود وهذا الثبات وهذا الاستمرار وهذا الالتـــزام بـــالقيم والأصول التي جاءت بها الثورة للشعب هي الأمور التي تكرّس الآمال في قلوب الذين يشاهدون هذه التجربة في كل أنحاء العالم. وهذا ما حدث في ثورتنا.

ليست القضية أننا نريد أن نمدح أنفسنا اعتباطاً ونغترّ بأنفسنا وننسب لأنفسنا مفـــاخر فارغـــة ونقول إن البلد الفلاني تعلم منا والبلد الفلاني تعلم منا، لا، لم يتعلم أي بلد منا، ولكـــن مـــن الأكيد أن بذرة الأمل التي نثرت في قلوب الشعوب وغرست وسقيت ونمت وأزهرت ناتجة عن صمود الشعب الإيراني. لو تراجع الشعب الإيراني، ولو تنازلنا عن شعاراتنا، ولو انتابتنا الرجفة والفزع أمام لغو الاستكبار العالمي وتهديداته وضغوطه لذبلت وماتت ورود الأمل التي نمـــت في قلوب الشعوب. صمودكم هو الذي سمح بنماء غرسات الأمل هذه، وهذا ما حصـــل بفضـــل المعنويات الإلهية التي توفرت لنا عن طريق أهل البيت (عليهم السلام) والاسم المبارك للزهـــراء الطاهرة سلام الله عليها والاسم المبارك لسيدنا بقية الله وتوجهاته عليه السلام. هذه أحوال يجب أن نحافظ عليها ونمسكها بأيدينا بقوة. يجب أن نحافظ على هذا التوجه لأهل البيـــت (علـــيهم السلام) والتوسل بهم، وعلى شعورنا بأن كل ما لدينا إنما هو من الله، وعدم الاغترار بأنفسنا.

المسألة الأخرى تتعلق بمهنة مدح أهل البيت (ع) الجملية الظريفة، ومن بين الحضـــور في هـــذه الجلسة إن لم يكن الجميع فلا شك أن مجموعة كبيرة منهم من المداحين المحترمين. إنني في هـــذه المناسبة وكمناسبات أخرى وعلى مدى سنوات طويلة ذكرت الكثير حول هذا الموضوع، لكنني أؤكد مرة أخرى. الشعر الذي تقرأونه بصوت حسن وألحان جميلة له في أحيان كثيرة تـــأثيرات أكبر من المحاضرات العلمية المنطقية الفلسفية أو غير الفلسفية، هذا في حال تم اختيار ما يقـــرأ بشكل صحيح وبملاحظة الجوانب الصورية والمعنوية فيه. الجوانب الصورية هي جماليات الشعر. ينبغي اختيار الشعر بصورة صحيحة وجيدة. الشعر من المصاديق البارزة للفن. ليس كل ما ينظم شعراً. للشعر خصوصياته. ينبغي اختيار الشعر. ولحسن الحظ لدينا شعراء جيـــدون.. شـــعراء ينظمون بأساليب ولغات مختلفة عن أهل البيت (عليهم السلام)، وينظمون أشعاراً جميلة جزلـــة جيدة. وحينما تطلبون أنتم هذه الأشعار فإن الطلب يستتبع العرض. إذن الشعر الجيد واللحن الجيد والصوت الجيد عناصر مهمة. طبعاً الألحان الجيدة لا تعني تقليد موسيقي اللهو المضلة عن

سبيل الله، هذه نقطة خذوها بنظر الاعتبار. بعض الألحان ألحان سيئة وخاطئة ولهوية، ويجب عدم إدخالها إلى مجال مدح أهل البيت (عليهم السلام) والقراءة لهم. ما مـــن ضـــير في أن تبتكـــروا أشكالاً جديدة في قراءة الأشعار والألحان المتنوعة، ولكن تجنبوا هذا التشابه والتداخل. وأقصد طبعاً الألحان والأنغام اللهوية المضلة عن سبيل الله ولا نمنع أي لحن قرئ لمضمون آخر، لا، إنمـــا نقصد ألحان اللهو المضلة عن سبيل الله. هذه لا تستخدموها.

المسألة الأخرى هي المضمون. أفضل الأشعار التي يمكن للمرء أن يقرأها من على منبر مدح أهل البيت هي تلك التي تتضمن مناقب أهل البيت (عليهم السلام). ذكر مناقبهم يـــنير القلـــوب ويفرحها ويثير أشواق الإنسان ويجري الدموع من العيون. ونقصد بها طبعاً المناقب المتقنة الثابتة، إذ يجب أن لا يعتمد الإنسان على الكلام الضعيف. يوجد هذا الكم الهائل من مناقب أهل البيت (عليهم السلام) في الكتب المعتبرة فليستفاد منها ومن أقوال الأشخاص الذين يعدون بحد ذاتهم سنداً وثقاة، كهذا الشعر الذي قرأه أحد السادة للمرحوم الشيخ محمـــد حســـين الأصـــفهاني (مفتقر). وهذا الرجل الجليل أستاذ المجتهدين، وكبار المجتهدين ومراجع التقليد العظام تلامذته في الفقه والأصول والفلسفة. وكان أيضاً شاعراً. ومثل أشعاره ستكون موثوقـــة. أو الروايـــات المختلفة الموجودة في كتب المناقب وسير الأئمة (عليهم السلام) المعتبرة. إذن جانب من القضية يتعلق بمناقب أهل البيت (عليهم السلام).

والجزء الآخر هو النصائح، ويمكن استلهام هذه النصائح من سير أهل البيت أنفسهم. نحن اليوم بحاجة للنصيحة. نحتاج إلى النصيحة من أجل تنمية الأخلاق في المجتمع ولنشر الأخلاق الحميدة ولرفع روح التعاطف والأخوة والصفاء المحبذة في المجتمع الديني. فمِن مَن نتعلم هذه الأمـــور؟ أسس الأخلاق وأركانها موجودة في كلمات الأئمة (عليهم السلام) وسلوكهم. لننمّي الأخلاق في المجتمع وندعو الناس إلى الخير والأمل والتعاون والأخوة والصبر والحلم والشكر والإحسان والإيثار والتجاوز. وندعوهم كذلك إلى اجتناب الأخلاق الذميمة وضيق النظر واليأس والتشاؤم والنوايا السيئة تجاه هذا وذاك، والحسد والبخل وباقي السيئات الأخلاقية. وإذا تمّت هذه العملية بلغة الشعر لكانت أفضل بكثير من لغة النثر والنصيحة العادية.

خطيب مثلنا إذا نصح الناس فلن يكون من المعلوم أنه سوف يؤثر تأثيراً عميقاً. ولكن حينما يقرأ القارئ نفس هذا المضمون على شكل شعر جميل وجيد وبلحن جيد فسيكون كالماء العذب الذي

يشربه الإنسان وتنتفع منه جميع خلايا جسمه ويؤثر في أعماق وجوده. طبعاً يجب تكرار الأخلاقيات، فالأقوال تؤثر والاستماع يؤثر بيد أن هذا التأثير ليس دائمياً وأبدياً. ثمة مؤثرات أخرى في المجتمع تعمل بالاتجاه المعاكس. لذلك يجب ذكر الأخلاقيات وإعادة ذكرها وتكرارها.

وجزء آخر من القضية هو التوعية ومنح البصيرة في شؤون الحياة. أنا طبعاً لا أوافق أن يجري التعرض لهذا والإساءة إلى ذاك باستمرار من على منابر مديح أهل البيت، ولا أحب هذا الأمر، لكن منح البصيرة وتوعية الناس أمر جيد. بفضل البصيرة استطاع شعبنا اليوم أن يصمد ويقاوم. يعلم شعبنا أية مؤامرات تحاك ضده، ومن الذين يتآمرون ضده، وما هو الهدف من هذه المؤامرات، وما الشيء الذي يستآؤون منه في الشعب الإيراني.. هذه أمور يعلمها شعبنا. الشعب الإيراني يعلم أن روح الإيمان والإسلام وطلب الحرية والاستقلال والصمود على هذا السبيل تغضب العدو. شعبنا يعرف العدو، وقد تعلمنا جميعاً أساليبه بالتدريج وأدركنا ما هي أساليبه. هذه البصيرة شيء قيّم جداً. لو لا هذه البصيرة لما صمد شعبنا وقاوم. والإعلام الذي يبثه العدو، سواء الذين يمارسون هذا الإعلام مباشرة أو الذين ينفخون في أبواقهم المؤجّرة ويتحدثون بالنيابة عن أولئك.. كل هذا الإعلام من أجل سلب الشعب بصيرته وتشبيه الأمور على الناس وإبعادهم عن إيمانهم وإسلامهم واستقامتهم وصمودهم في هذا السبيل ومعرفتهم الصائبة لأحداث الحياة. وبالإمكان تخصيص جانب من مجالس مديح أهل البيت (عليهم السلام) لهذه الأمور. فتشوا عن الأشعار المناسبة لهذه الموضوعات واختاروا الجمل المناسبة. وفي اللحظات المناسبة قد تكون الكلمة الواحدة أحياناً مؤثرة في القلوب بمقدار كتاب. حاولوا التأثير في القلوب. وأرى اليوم للإنصاف أن جماعة مداحي أهل البيت قد تقدمت بهذا الاتجاه تقدماً كبيراً لحسن الحظ.. بعض المجالس نوفق لسماعها، أو تقام هنا، أو تبث أحياناً من التلفاز.

والنقطة الأخيرة هي أن صاحب مهنة مديح أهل البيت (عليه السلام) الذي منح نفسه فخر العمل والخدمة في هذا السبيل إذا أراد الجمع بين كل هذه الخصوصيات يحتاج أولاً إلى المطالعة والقراءة. هناك حاجة للمطالعة والقراءة والتزود. طبعاً المداحون القدماء كانوا ملتزمين بأن يقرأوا عن ظهر خاطر وكانوا يعتبرون أنه من غير المناسب القراءة عن الأوراق. ولحسن الحظ فإن الأمر ليس كذلك اليوم. ليس من الضروري أن ينفقوا ساعات من وقتهم لحفظ قصيدة شعرية، لا، يمكن القراءة عن الورق. وكذلك أهل المنبر. في فترات شبابنا وحداثتنا لم نر أبداً

رجل منبر يخرج من جيبه ورقة ويقرأ الأحاديث عنها. كانوا يعتبرون هذا الشيء غير لائق. وكان المرحوم الشيخ فلسفي (رضوان الله عليه) من حطم هذا التقليد، فأخرج من جيبه ورقة وقرأ الأحاديث عنها. وكان واعظاً من الطراز الأول في البلاد. وتعلم الوعاظ الآن هذه الطريقة. من أجل أن يقرأوا بصورة صحيحة ومناسبة ومن أجل أن يقرأوا ما يريدون أن يقرأوه يخرجون من جيوبهم أوراقاً يقرأون منها الأحاديث.. يقرأون الشيء الذي كتبوه.. يقرأون الشعر. هذه حالة تسهل العملية كثيراً. وكذا الحال بالنسبة لمديح أهل البيت، فالشرط الأول هو المطالعة وتسجيل رؤوس النقاط والملاحظات، والتحدث عن مطالعة ودقة ودراسة.

الشرط الثاني هو التعرف في مطالعاتكم على القرآن والأحاديث. الأنس بالقرآن ومصاحبته ضروري للجميع. هذا ما نوصي به الجميع، وجميع الشباب في بلادنا. وقد أصبح هذا هو الواقع في بلادنا حالياً لحسن الحظ. يرى المرء بين الطلبة الجامعيين وبين طلبة العلوم الدينية وبين الشباب من غير الطلبة الجامعيين والحوزويين أفراداً يصاحبون القرآن، وبعضهم يحفظون القرآن، وبعضهم ممن لا يحفظ القرآن يفهم القرآن على الإجمال. أي إنه يفهم المضمون رغم عدم علمه بكل التفاصيل. هذه حالة مغتنمة جداً.

حينما يقارن المرء الواقع اليوم بما كان عليه قبل عشرين عاماً أو خمسة وعشرين عاماً يرى أن هناك فرقاً كما بين الأرض والسماء. والحساب قد خرج عن حصر الكثيرين. ولأنني مهتمّ بهذه المسألة لم يخرج الحساب عن حصري ويدي، وأدري ما الذي حدث ويحدث في ما يخصّ حالة مصاحبة القرآن. في السابق حينما كان القارئ يقرأ القرآن لا يفهم في كثير من الأحيان معنى الآيات، فيقطع حيث يجب أن يصل ويصل حيث يتوجب عليه أن يقطع. أما اليوم فالأمر ليس كذلك على الإطلاق، والجميع يعرفون هذه المسائل. وبالتالي فالتعرف على القرآن والأحاديث هي توصيتنا للجميع. لكن جماعة المبلغين الدينيين ومداحي أهل البيت (عليهم السلام) معنيون بهذا الكلام على وجه الخصوص. تجب مصاحبة القرآن والاستئناس به. اقرأوا القرآن حتماً وبملاحظة الترجمة وأخذها بنظر الاعتبار. واحفظوا هذه الترجمة في أذهانكم. الآيات التي تتضمن نصائح ومعارف سجلوها واستفيدوا منها واذكروها واعملوا بها. وكذا الحال بالنسبة للأحاديث.

ولحسن الحظ فإن كتبنا الحديثية المعتبرة ترجمت جميعها حالياً. فـ «الكافي» مترجم، و «من لا يحضره الفقيه» مترجم، و «نهج البلاغة» مترجم، وكلمات السيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) مترجمة. أي إن هذه النصوص لم تعد تختص بالذين يجيدون العربية، لا، من يجيد العربية ومن لا يجيد العربية كلهم يستطيعون الاستفادة من هذه الكلمات. وهذه فرصة ثمينة ويجب الاستفادة من مثل هذه الفرص. إذن توصيتنا هي تلاوة القرآن الكريم ومصاحبته والأنس بالأحاديث والتعرف على معارف أهل البيت عن طريق الأحاديث، وفوق كل هذا التوجّه إلى الله تعالى والحفاظ على الأواصر بين القلب والذات الأحدية المقدسة وتقويتها بالدعاء والتوسل والذكر والخشوع والنوافل من الصلوات.

إذا تم الحفاظ على هذه الأواصر وتعززت فسوف تعالج كل المهمات الصعبة تدريجياً. هذا هو أساس الأمر. أواصر الارتباط بمقام الأحدية – وهي الخشوع والذكر والتوسل – مرتبطة ومتصلة بأهل البيت (عليهم السلام). ولا يمكن التفكيك بين ذا وذاك – «من أراد الله بدأ بكم» (1) – وهناك أدعية الصحيفة السجادية والمناجاة الخمسة عشر وشتى الأدعية والمناجاة التي تصفّي الفؤاد والذهن وتجعله فعالاً نشيطاً. كثير من المعارف يكتسبها المرء عن هذا الطريق.

نتمنى أن يوفقكم الله.. والكلام كثير لكن الوقت لا يتسع.. سعدنا اليوم كثيراً بلقاء السادة والاستماع لكلمات الأجلاء.

اللهم بحق محمد وآل محمد اجعلنا من أتباع أهل البيت (عليهم السلام). ربنا اجعلنا من الشيعة الحقيقيين لسيدتنا الزهراء (سلام الله عليها). اللهم وفق الشعب الإيراني في كل المجالات والميادين. ربنا عجّل فرجك لكل المسلمين ولشيعة البحرين ولكل المستضعفين في العالم. ربنا ارضِ عنا القلب المقدس لإمامنا المهدي المنتظر (عج) واشملنا بأدعيته.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

1 – مفاتيح الجنان، زيارة الجامعة الكبيرة.